الخوف في شعر ابن حمديس الصقلي

د. حفيظ بولخراص

قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الشاذلي بن جديد - الطارف، boulakhrash@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: 2019/02/21 **تاريخ المراجعة:** 2019/02/21 **تاريخ القبول:** 2021/06/13

ملخص

يعكس شعر ابن حمديس الصقلي جوانب مختلفة من شخصيته وطبعه، من أهم تلك الجوانب علاقته بالآخر، التي يعد الخوف واحدا من محدداتها، وهو شعور عبّر عنه الشاعر بأشكاله المختلفة، ومظاهره المتعددة. كما لم يقف ابن حمديس ساكنا إزاء خوفه وإنما استعان بآليات شتى لمقاومته والتكيف معه، على شاكلة: العزلة، واللهو وشرب الخمر، والمواجهة والتحدي. وما هذا الإلمام بمختلف جوانب الخوف إلا دليل على ملازمة هذه الظاهرة للشاعر، ودورها في بلورة موقفه من الحياة والوجود.

الكلمات المفاتيح: شعر، شعر عربي قديم، خوف، ابن حمديس الصقلي.

Fear in the Poetry of Ibn Hamdis Al-Siqilli

Abstract

Ibn Hamdis Al-Siqilli's poetryreflects different aspects of his personality and signature style,one of the most important aspects being his relation to the other. Moreover, fear is one of his determinants; a feeling expressed by the poet in his different forms and manifestations. Ibn Hamdis did not remain silent about his fear, but resorted to various mechanisms to resist to it and cope withit, in the form of isolation, entertainment and drinking wine, confrontation and challenge. This knowledge of various aspects of fear is only evidence of the inherent phenomenon of the poet and its role in defining his position on life and existence.

Keywords:Poetry, ancient arabic poetry, fear, Ibn Hamdis Al-Siqilli.

La peur dans la poésie d'Ibn Hamdis Al-Siqilli

Résumé

La poésie d'Ibn Hamdis al-Siqilli reflète différents aspects de sa personnalité et de son empreinte, dont l'un des aspects les plus importants est son rapport à l'autre, la peur étant l'un de ses déterminants, un sentiment exprimé par le poète dans ses différentes formes et manifestations. Ibn Hamdis ne resta pas silencieux face à sa peur, mais il recourut à divers mécanismes pour lui résister et s'y adapter, sous forme d'isolement, de divertissement et de consommation de vin, de confrontation et de défi. Cette connaissance des divers aspects de la peur n'est que la preuve du phénomène inhérent au poète et de son rôle dans la définition de sa position sur la vie et l'existence.

Mots-clés: Poésie, ancienne poésie arabe, peur, fils de Hamdis al-Siqilli.

المؤلف المرسل: حفيظ بولخراص، boulakhrash@yahoo.fr

مقدمة:

لم يتردد الشاعر العربي القديم في التعبير عن مشاعر الخوف التي تنتابه من حين إلى آخر، على اختلاف دواعيها وبواعثها، وذلك في بنى تعكس جانبا من رؤاه ونظرته إلى الآخر والزمن، وابن حمديس[1] واحد من الشعراء الذين برزت في شعرهم ظاهرة الخوف بشكل لافت للانتباه، وهذا بسبب الواقع المرير، وما عاشه من أحداث مؤلمة، على شاكلة فقد وطنه وأهله وشبابه. وقبل الغوص في أغوار شعره واستكناه ظاهرة الخوف عنده سنورد تعريفا بسيطا للخوف من الناحيتين اللغوية والاصطلاحية.

1- تعريف الخوف:

جاء في لسان العرب، الخوف: الفزع، خافه يخافه خوفا وخيفة ومخافة، وخوَّف الرّجلَ إذا جعل فيه الخوف، وخَوَّفْتُه إذا جعلته بحالة يخافه الناس. ابن سيدة: خوّف الرجلَ إذا جعل الناس يخافونه، والخوف: القتل، والقتال، والتَّخَوُّفُ: التَّنَقُّصُ[2].

وقد حاول القدماء تحديد مفهوم الخوف انطلاقا من بواعثه وآثاره، من بينهم الجرجاني الذي يرى بأن «الخوف توقع حلول مكروه، أو فوات محبوب»[3] وقد بنى تعريفه هذا على أسباب الخوف. وإذا ترك الجرجاني الأسباب على الإطلاق فإن الراغب الأصفهاني يصنفها إلى مجهولة ومعلومة؛ إذ يقول: «الخوف هو توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة»[4]. ويزاوج أبو حامد الغزالي في تعريفه للخوف بين بواعثه وآثاره النفسية ، فيقول: «الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال[5]، فالسبب يتمثل في المكروه أو الضرر الذي يمكن أن ينجم عن المؤثّر، أما الأثر فيكمن في تألم القلب واحتراقه.

أما علماء النفس المحدثون فقد اختلفوا فيما بينهم في تعريفهم للخوف، ولعل من أدق التعريفات ما قدمه أسعد رزق الذي يذهب إلى أنه «أحد الانفعالات البدائية العنيفة يتملّك المرء فيشله عن الحركة ويجمّد نشاطه، يتميز الخوف بحدوث تغيرات واسعة المدى في الجسم، كما يتصف بسلوك لدى الشخص قوامه الهرب والفرار أو الكتمان والإخفاء»[6]، فهذا التعريف أحاط بموضوع الخوف من جوانب متعددة فبين طبيعته وأسبابه وآثاره النفسية والجسدية وكذا مظاهره وما يصاحبه من ردود فعل.

2- أنماط الخوف في شعر ابن حمديس الصقلي:

2-1 - الخوف من الله:

ويتجلى بوضوح في زهدياته التي يظن شوقي ضيف أنها قيلت في أواخر حياته[7]، وهي تجسد علاقة العبد بربه عبر مجموعة من المداخل كالخوف من الذنوب وارتكاب المعاصي، والخوف من عذاب النار، إضافة إلى التوبة، والتنويه بحقارة الدنيا ووضاعتها.

فهو يقول مستنكرا على نفسه اتباع الهوى وإصرارها على اجتراح الذنوب، ومعربا في الوقت نفسه عن خوفه من تبعات سلوكه هذا بعد أن يوارى الثرى:

إلى كم أراني في هَوَى النفسِ خائضاً ... ولم أتقِ الإغراقَ منها على نفسي
وقــد شــملتني شـيبـةٌ لـم أبتْ بها ... فما لي في ليلي وقد طلعتْ شمسي
غرست بكفّيَّ المــعاصيَ جـــاهِدا ... ولاشـكّ أني أجتـني ثمــرَ الغـرسِ
إلى الله أشكـــو جُمْـلةً أرتدي بها ... وأصبحُ منها في الذنوب كما أمسي
فيا وحشي من سـوء ما قدّمتْ يدي ... إذا لم يكنْ في القبر من رحمةٍ أنسْي[8]

ويستشعر في موضع آخر ثقل معاصيه، ووقعها المؤلم على قلبه، راجيا من الله سبحانه وتعالى أن يبعث الطمأنينة في نفسه ويشمله برحمته:

ذنوبيَ تنـمي كلّ يومٍ تكسّـباً فيوْمِي بها في اليَوْم أثقل من أمسي
ألا آمنَ الرحمن خوفي بعفوه فإني من نفسي أخـــافُ على نفسي[9]

وكثيرا ما تتصاعد في شعر ابن حمديس نداءات الاستغفار والتضرع خشية من لقاء الله عز وجل بعد الموت على شاكلة:

فيا رَبّ عَفْوَكَ عن مُذنبٍ يخافُ لقاءكَ بَعْد الحِمام[10]

فهو يخشى عذاب النار وعقاب يوم الحساب لقاء تقصيره في عبادة الله جل جلاله، وفي أداء واجباته نحوه، لذلك يقول:

يا ربّ إنّ النار عـاتيـــةٌ وبكـلّ سامعةٍ لها حَسّ
لا تجعلنْ جسدي لها حطباً فيه تُحَـرَّقُ منّيَ النـفـس
وارْفقْ بعبدٍ، لحظُـهُ جَـزِعٌ يَوْمَ الحساب، ونُطْقُهُ همس[11]

ويبدو أن هذا الإحساس قد سيطر عليه في مرحلة شيخوخته حين أحس بقرب النهاية ودنو الأجل مثلما يظهر في قوله:

دبَّ مَوْتَ السّكونِ في حركاتِي وخَبَا في رمـادِهِ حُمْـرُ جمـري
وأنا حيثُ سرْتُ آكـلُ رزقي غير أنّ الزمان يأكـل عمـري
كلّما مـرّ منـه وقـتٌ بربحٍ من حياتي وجدتُ في الربح خسري
يا رفيـقاً بعبـده ومحيـطاً علمهُ باختـلافِ سـري وجهـري
مِلْ بقلبي إلى صَلاَحِ فسادي منه واجبرْ برأفـةٍ منـك كسـري
وأجِرْني ممَّـا جَناهُ لسـاني وتَناجـتْ به وسـاوس فكـري[12]

فشعوره بقرب الموت جعله يتأمل حياة ما بعد الموت، ويفكر في الثواب والعقاب، حاملا بين أضلاعه إحساسا عميقا بالندم والحسرة على ما اقترفته يداه من سيئات، مما دفعه إلى التوسل إلى الله عز وجل بصفاته العُلى (العلم والرأفة والهداية) آملا في الإجابة.

2-2 - الخوف من الموت:

لقد كانت مشكلة الموت مصدر قلق للبشريّة على اختلاف الأعصر والأزمنة، وبالمقابل كان الخلود حلما يراودها عبر التّاريخ، لكن هذا الحلم يبدّده الواقع باستمرار، لأنّ كلّ خطوة يتقدّمها المرء في العمر هي في الحقيقة خطوة نحو النّهاية[13]، فكلّ يوم يزيد في عمر الإنسان يُنقص من الإمكانيات القصوى للحياة لديه، ويقرّب إليه ساعة النّهاية، لذلك فمشكلة الفناء هي من أكبر ما ينغص على الإنسان ويخيفه «فالإنسان يرهب الموت لأنّ الحياة تعني –في نظره– الاستمرار في البقاء، وهو يريد أن يحيا أبدا»[14].

وقد أحسّ ابن حمديس بالموت إحساسا حادّا، وكثيرا ما يمرّ بخلده خاصّة في رثائيّاته وزهديّاته وبعض قصائده التي قالها في أواخر حياته، وهذا الموضوع يطفو على سطح أفكاره ووعيه –عموما– عندما يتوفّر مثير له –مهما كان هذا المثير– فيعبّر عندئذ عن خوفه وخشيته منه مثلما حدث له لمّا أصابه مرض وهو شيخ فأحسّ بقرب الأجل فقال:

وكنتُ إذا مرضتُ رجوتُ عيشاً ليالَي كنتُ في شَرخ الشبابِ
فصرتُ إذا مرضت خشيت موتاً وقلتُ: قد انقضى عدَدُ الحساب(15)

قد يظنّ ظانٌّ أنّ المعنَيين في البيتين متشابهان يؤديان إلى النّتيجة نفسها، لكن من يتدبّر ويمعن النّظر فيهما أكثر يدرك أنّهما يختلفان عن بعضهما الاختلاف كلّه، ففي الأوّل يتراءى لنا رجاؤه وما يحمله من إلحاح، وأمل وتطلّع، وإرادة في العيش وكلّ ما يوحي به هذا الموقف من إيجابيّة، وربّما لأنّ اغتراره بالشّباب– آنذاك– أبعد– نوعا ما– عن ذهنه فكرة الموت، ولكنّ البيت الثّاني يُسْفِرُ عن جزعه من الموت، وما انجرّ عنه من رضوخ و استسلام وخمود إرادة، وكلّ ما يوحي به الموقف من سلبيّة وانسحابيّة أمام المنون التي بات احتمال حدوثها كبيرا في مرحلة الشّيخوخة، وعلى وجه الخصوص إذا أناخت به علّة أو مرض، مما يقلّل من فرص النّجاة من قبضتها، لهذا فقد أضحت هاجسا لا يفارقه.

وتزداد هذه النّظرة حدّة ويزداد هذا الإحساس تفاقما وتضخّما شيئا فشيئا حتى يشارف ذروته عندما بلغ الثّمانين عاما حيث يقول:

أرى الموت في عيني تخّيلَ شخصُهُ ولي عُمُرٌ في مثلهِ يتقي مثلي
وكادتْ يدٌ منه تشدّ على يدي ورجلٌ له بالقُرْبِ تمْشي على رجلي
وفي مدّ أنفاسي لديّ وجزرها بقاءٌ لنفسٍ غير مُتصل الحبل(16)

لقد تلاشى عنده –في هذه السّن المتقدّمة– كلّ أمل في الحياة؛ إذ أصبح يحسّ إحساسا طاغيا بدنو أجله، إلى درجة أنّه أضحى يرى صورة الموت ماثلة أمامه قريبة منه أشدّ القرب، وفي الفعل "كاد" دلالة من جهة على قرب ساعة الموت، ومن جهة أخرى على القلق المستمرّ منها والتّرقّب الدّائم لها.

إنّه فزع من هذا المآل لمجرد تذكّره للمنيّة وتفكيره فيها مما ألقى به في حيرة عارمة، وأدى به إلى التّساؤل بمرارة وأسى وبيل عن علّة كون الموت مدعاة للخوف والأوجاع فقال:

فما للردى من منهلٍ لا نُسيغُهُ ووارِدُهُ يَغْنَى عن العَلّ بالنّهل(17)

إذا فتقصّيه لحقيقة الموت–هنا– وتأمّله فيها نجم عن اعتباره لها قضيّة تتعلّق بذاته أولا وقبل كلّ شيء، فقد عانى مشكلة الفناء انطلاقا من نفسه.

وهو علاوة على ذلك تأمّلها وعاناها –أيضا– على صعيد أكثر شموليّة ليمسّ البريّة جمعاء، بل الكون كلّه، لنقرأ قوله لما بلغ خمسة وخمسين عاما:

دُنْيا الفتَى تفْنَى لذا خُلِقَتْ وتموتُ فيها الجنّ والإنسُ
إنَّا لأدمَ كلّنا ولدٌ وَحِمامُنَا بحمامه جِنْس
وأقلّ ما يبقى الجدار إذا ما انهدّ تحت بنائه الأسُ(18)

وكأنّ هاجس المنايا يلاحق الكائن البشريّ لمجرّد ولادته، بل يلاحق المخلوقات جميعها لمجرد أنّها خُلقت، فالدّنيا خُلقت لتفنى–كما يقول، «وليس أقسى على الموجود الذي يملك الحريّة، ويحنّ إلى الأبديّة وينزع نحو اللاّنهائيّة، من أن يشعر بأنّ لحريّته حدودا، وأنّ الزّمان ينشبُ أظفار الفناء في عنقه، وأنّ التّناهي هو نسيج وجوده»(19)

وحتى ولو أمعن الشّعراء في اللّذة والاستمتاع فإنّ فكرة الموت تبقى قابعة في أعماقهم(20)، هذا ما نستشفّه لمّا نقرأ قول ابن حمديس:

كلفتُ بكـاساتِ الصبــوح مبكّــرا وكم بركاتٍ للفتى في بكـوره
هو العيشُ فاغنمْ من زمانك صَفْوَهُ وَصِدْ قَنَصَ اللذاتِ قبل مُثِيره[21]

فعلى الرّغم من انهماكه في الاستمتاع بمباهج الحياة، وعلى الرّغم من نشوة السّكر، إلاّ أنّه يأتي في نهاية القصيدة ليطالب من يستمع إليه باغتنام الفرصة والتّمتّع بلذائذ العيش لأنّه يعلم في أعماقه بأنّ هذه الحياة وهذه اللّحظات زائلة ولابدّ، وأنّ الموت مدرك الحيّ لا محالة، وأنّ هذه الوسيلة هي حيلة البشر لقهره ونسيانه ولو للحظات، ومن هنا فإنّ هذه الفكرة –عند ابن حمديس– لم تقتصر على قصائد الرّثاء والزّهد بل تغلغلت حتى إلى أغراض ومواضيع أخرى كوصف الخمر مثلما رأينا، فقلقه حيال مشكلة الفناء يتملّكه حتّى وهو في أزهى وأسعد الأوقات.

وعلى ما يبدو فإنّ فقدانه لبعض أهله وأخِلاّئه إلى الأبد، بين الفينة والأخرى، كان يعمّق–كلّ مرّة– من قلقه، ويضخّم شعوره بالخوف من الموت:

وإنَّ المنية من نحوها عليك بأظفارها واثبــه
ألمْ ترها بحصاة الردى لكلِ حميم لها حاصبه[22]

إنّ كلّ ما يفعله الموت شكّل في خياله صورة مرعبة عنه، ممّا أثّر في نعوته له، فهو تارة وحش مفترس لا يرحم، وتارة أخرى صيّاد ينصب الأشراك للبرايا، أو مرض مستعص لا دواء له[23]، وأحيانا سمّ ما له ترياق[24]، وأحيانا أخرى كائن شرّير غادر لا يُؤْمَنُ غدره[25]، إلى غير ذلك من الأوصاف الأخرى. وقد ساعدت على تأجيج إحساسه هذا، تلك الظّروف القاسية التي مرّ بها، وكذا تغرّبه، والأحداث المروّعة التي شهدها، وهلاك العديد من المقرّبين إليه، وشيخوخته...إلى غيرذلك من البواعث الأخرى، ولعلّ ذلك كلّه كان يحسّسه–باستمرار– بدنوّ النّهاية واحتمال حدوثها في أيّة لحظة.

3-2 - الخوف من الزمن أو الدهر:

يُعَدُّ موضوع الزمان أو الدهر من أهم الموضوعات التي شغلت الإنسان العربي القديم، والشعر بدوره – في تلك المرحلة – لم يغفل عن هذه المسألة، وعالجها وعبّر عنها، من ذلك – مثلا – قول امرؤ القيس:

ألم يحزُنك أنّ الدهرَ غولٌ خَتورُ العَهْدِ يلتهمُ الرّجالا[26]

فقد اعتبر الدهر غولا غادرا أشد الغدر مما ينم عن رفض وعدائية دفينة تجاه الدهر وما يحكم به من مصائب وبوائق.

وقد بلور القرآن الكريم نظرة الإنسان العربي القديم نحو الزمان، وموقفه منه، في قوله تعالى على لسان الجاهليين: «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ»[27]. ترسم هذه الآية صورة الدهر بمنظار الجاهلي، تقضي بعليته وقوته المطلقة، وقدرته اللامحدودة على التأثير في المرء وهلاكه.

وكما أعرب الشاعر الجاهلي عن خوفه من الزمن، فقد أعرب عنه الشعراء في مختلف الحقب اللاحقة لذلك العصر، مثلما هو موجود في عهد ملوك الطوائف في الأندلس وعهد المرابطين في المغرب، وهذان العهدان بما تميزا به من أحداث، من تقلب الأوضاع، وكثرة الحروب والفتن والصراعات عموما؛ قد خَلّفَا أثرا عميقا وكلوما بعيدة الغور في نفوس الشعراء، فاتجهوا إلى الزمان يودعونه شكواهم، ويطعنون بغدره وغروره[28]، من بين هؤلاء

ابن حمديس الصقلي الذي كثيرا ما تتصاعد زفراته وأنّاته من شعره فيعبر عن قسوة الزمن وسطوته، ولسان حاله يعبر عن ذلك فيقول:

وكيفَ يصفو لنا دَهْرٌ مَشَارِبُهُ يخوضُهَا كُلَّ حينٍ جَحْفَلُ النُّوَبِ[29]

يتضح جليا هنا أن المآسي لا تفارقه، والنكبات لا تراوحه، ولعل أعظم هذه النكبات والمآسي وأشدّها تأثيرا في الشاعر نكبة وطنه واستيلاء النورمنديين عليه[30]. فهو أمام هذا المصاب الجلل الذي تتصدع له الجبال وجد نفسه في مواجهة الزمان فحمّله مسؤولية ضياع صقلية، ومن صيحاته ما يبين في قوله:

صقيلةٌ كادَ الزمانُ بلادها وكانت على أهلِ الزّمانِ محارسا
فكم أعينٍ بالخوف أمستْ سواهراً وكانت بطيبِ الأمنِ منهم نواعسا
أرى بَلَدِي قد سامَهُ الرومُ ذلّةً وكان بقومي عزّه متقاعسا
وكانت بلادُ الكفر تلْبَسُ خَوْفَهُ فأضحى لذاك الخوف منهنّ لابسا[31]
قفْ بالتفكير يا هذا على زمنٍ جمّ الخطوبِ ومَثّلْ صَرْفَه وَقِسِ
ولا تكن عنده للسلم ملتمساً فالأريُ في فم صل[32] غيرُ مُلْتَمَس[33]

لقد علّمته الحياة أن الدهر لا يُؤْمَنُ جانبه، ولا يُلتمس منه إلا الكيد والشر، لذا على المرء أن يأخذ حذره منه على الدوام. وهذه النظرة التشاؤمية و «الشكوى وليدة تلك الظروف القاسية التي ألمت بابن حمديس فأصبح بعد سقوط وطنه ونزوحه عنه دائم الأسى، كثير الشكوى، ساخطا على الزمان الذي انتزعه من أهله، وحكم عليه بالتشرد والاغتراب»[34].

2-4- الخوف من الناس:

لقد عاش ابن حمديس في عصر تميز بالاضطراب وعدم الاستقرار، وقد ساهم هذا الوضع في انتشار الآفات الاجتماعية والعادات السيئة، فتفشت الرذيلة، وطمّ الفساد، وغاضت العلاقات الإيجابية لتحل محلها العلاقات المادية والمصلحية، فانقلبت الموازين وتغيّرت المقاييس، وتراجعت المبادئ السامية من صدق، وصداقة، ووفاء، وكرامة ... إلى غير ذلك، أمام العادات الرديئة من خداع، وخيانة، وغش، ونفاق ... وغيرها، هذا ما جعل أصحاب النفوس النبيلة والمبادئ السامية يخافون من الناس ويفقدون الثقة فيهم، ويشعرون بعدم الأمان منهم، من هؤلاء الشاعر ابن حمديس الذي يقول:

فيا سائلي عن أهل ذا العصر دعْهمُ فبالفَرْع منهم يُسْتَدَلّ على الأصلِ
إذا خَلَلٌ في الحالِ منك وَجَدْتَهُ فإيّاكَ والتعويلَ منهم على خِلّ[35]

هذه هي خلاصة حياته ونظرته نحو الناس، فقد خاب ظنه فيهم، فبعد معاشرته لهم طويلا لاقاهم غير جديرين بالثقة، ولا مجال للاعتماد عليهم، لأن الخذلان من شيمهم، وقد استفاد من تجربته الخاصة ليؤسس قاعدة عامة، وهذا ما يفهم من "فبالفرع منهم يستدل على الأصل "، زد على ذلك ما يضفيه عنصر الحوار على المعنى، فانطلق هذا الأخير إلى فضاءات أرحب، ليتجاوز الفردية، ويعبّر عن الجو النفسي العام لأولئك الذين اصطدموا بانحراف قيم المجتمع الأخلاقية والاجتماعية، وليست هذه النزعة غريبة عن هذا الشاعر الذي جاء شعره مشتملا «على جولات فكرية مملوءة بأحواله النفسية، والآلام التي يشعر بها، وكثيرا ما تظهر هذه الآلام آلاماً لجميع الشاكين والمتألمين من الحياة ... لذلك كان ابن حمديس شاعرا نفسيا ناقما على الحياة وما فيها»[36].

ومن بين السلوكات التي اكتوى بنارها وجعلته يخاف الناس ويحذرهم:الغيبة والنميمة وإباحة أعراض الناس، يقول:

ألا ربَّ كأسٍ تقْتَضي كلَّ لَذةٍ أكلتُمْ عليها، طولَ ليلكمُ، لحمي
بلى لو قَدَرْتُمْ لاتَّخذتُمْ شرابَكمْ دمي في كؤوسٍ وهي تنحتُ من عظمي[37]

يبطن هذان البيتان إحساسا مريرا يكشف عن سخطه الدّفين من هذه الآفة السيئة، ولم يجد وسيلة أقدر على إخماد جمرة غضبه من الشعر فأودعه زفراته وأنّاته، فالشاعر عندما يبدي غضبه بكلمات مريرة، تخف وطأته عليه[38]، يتجلى ذلك في عبارات مثل: "أكلتم ... لحمي"، "اتخذتم شرابكم دمي"، "كؤوس تنحت من عظمي"، هاته العبارات إن دلت على شيء إنما تدل على صراعه النفسي من جراء هذا السلوك، وعن انزعاجه، وحنقه على الذين اغتابوه.

ومن بين الأخلاق البذيئة التي تنتشر في المجتمع عند اختلال القيم وفساد الذمم: الخيانة، والتي يبدو أنها لفحت ابن حمديس بنارها فتركت جرحا عميقا في فؤاده لا يبرأ مع مر السنين، هذا ما نحسّه عند قراءة قوله مثلا:

أتحسبني أنسى ، وما زلت ذاكراً، خيانةَ دهري أو خيانة صاحبي[39]

الاستفهام هنا ليس هدفه انتظار الجواب، بل الغرض منه هو النفي، أي إنه ينفي إمكانية نسيانه لخيانة صاحبه – مع أنه لم يذكر هذا الصاحب – كما أن تسويته بين خيانة الدهر وخيانة هذا الصاحب توحي بأن أمرا خطيرا قد حدث له – على الأقل في نظره – مع صديق غيّر مجرى حياته – أيا كان هذا الصديق – وهذه الحادثة اعتملت في داخله وأثارت الحزن في نفسه فراح بعد ذلك يحدّثنا وفي القصيدة عينها عن تجربته على أرض الواقع والتي أثبتت له بأنه هيهات أن يعبّر مظهر الشخص عن جوهره فيقول:

علمتُ بتجريبي أمورا جهلتها وقد تُجهَل الأشياء قبل التجارب
ومَنْ ظَنَّ أمْواه الخضارم[40] عَذْبَةً قضى بخلاف الظنّ عند المشارب[41]

ويقول في موضع آخر محذّرا من الاغترار بالمظاهر التي لا تعدو أن تكون بريقا زائفا:

بأي وفيّ في زمانك تختصُّ فيغلو غُلواً في يديك به رخصُ
وكم من عدوٍ كامنٍ في مصادقٍ وَموضِعِ أمْنٍ فيه يحترسُ اللص[42]

فالمظهر الذي بات هو المقياس للحكم على الشخص ما هو إلا مقياس باطل قد يؤدي الانبهار به والانسياق له إلى عواقب وخيمة.

2-5- الخوف من المكان:

يتحول المكان في الخطاب الشعري من فضاء مادي إلى بنية نصية تعكس تجربة الشاعر المتفردة ورؤاه وأحاسيسه، وتنشأ هذه البنية من تفاعل الشاعر مع المكان وتأثر أحدهما بالآخر؛ إذ «يفرض كل مكان سلوكا خاصا على الناس الذين يلجأون إليه. والطريقة التي يدرك بها المكان تضفي عليه دلالات خاصة»[43] ومن السلوكات التي تستوجبها بعض الأماكن: الخوف والرهبة، على شاكلة البحر والصحراء والحصون والقلاع التي انطبعت في شعر ابن حمديس بطابع خاص نتيجة لنفسية الشاعر الحساسة والقلقة، وكذا حياته غير المستقرة، ومعايشته للكثير من الأحداث المؤلمة.

لا يتحرج ابن حمديس من إبداء خوفه من البحرفي العديد من المواقف من مثل قوله:

لا أركبُ البحرَ خوفاً علّي منــه المــعاطــب
طينٌ أنا وهـو مــاءٌ والطينُ في الماء ذائب[44]

وقوله:

وأخضــر لولا آيةٌ ما ركبتُــهُ ولله تصريفُ القضاءِ كما شاءَ
أقول حذارًا من ركوب عُبابه أيا رَبُّ إن الطينَ قد ركبَ الماءَ[45]

فعلى الرغم من سخاء البحر وفوائده الجمة إلا أن الشاعر يرسم له صورة قاتمة قائمة على المقابلة بين نقيضين يذوب أحدهما في الآخر وهما: "الطين" و"الماء" وهذه الصورة التي تنتصر للبحر تنبع من خوف عميق من الغرق أججته حادثة الغرق التي نجا منها دون جاريته الغالية جوهرة، وهو يوثّق هذه الواقعة في قوله من قصيدة بعثها إلى أهله يعتذر فيها عن العودة إلى الوطن:

ألَمْ أركبِ النفسَ اشتيــاقاً إليكــم غواربَ مخضّر الغواربِ طـام[46]
ألم أكُ في الغرقى مشيــراً براحتي فلم أنْجُ إلا مـن لِقَاءِ حمــامي
ألم أفقد الشمسَ التي كان ضوؤُها يُجلي عن الأجفان كلّ ظـلامِ
طمــعــتُ بهـذا كـله في لقائكــم لِتَغْــــرَمَ نَفْـسٌ أُتْلِفَتْ بغـــرام[47]

لايخفى ما تبطنه هذه الأبيات من شعور ساحق بالخيبة والحيرة والحسرة جراء حادثة الغرق تلك، فعلى الرغم من نجاته إلا أن البحر حرمه من أعز ما يملك: وطنه وأهله وجاريته جوهرة التي وصفها بالشمس، لذلك أصبح الخوف من البحر هاجسا «ما انفك يلازمه حتى رحل إلى دنيا الخلود ولم يستطع أن يتجاوز ذلك الشعور بالخوف ويتغلب عليه بدافع لا إرادي، وشعور داخلي نابع من نفسه القلقة[48].

وتعد الصحراء كذلك من أهم الأماكن التي تولد مشاعر الخوف والوحشة لدى الإنسان لشساعتها وعمق أغوارها وترامي أطرافها وتشابه جزيئات تكوينها مما قد يعرض الإنسان للتيه والضياع، فهي ظاهرة امتداد وخواء تعمق السكون المادي، وتعكس وحشة في نفس الفرد[49]، نحو ما نلمحه في قول ابن حمديس:

ومشحونةٍ بالخوف لا أمنَ عندها كأنك فيها حيثُ سرتَ مريب
كأنك في ذنبٍ عظيــم بقطــعــها فأنت إلى الرحمن منــه تتوب[50]

فالصحراء تقترن في ذهنه بالخوف والموت والهلاك إلى درجة أن السفر عبرها يشبه إثم من يلقي بنفسه إلى التهلكة، لذلك يتوجب على من يقطعها التوبة من هذا الذنب.

ويعمد الشاعر إلى ذكر مظاهر الصحراء المرعبة من حرارة حارقة، ووحوش ضارية وعطش وانعدام المياه وذلك لكي يولد مشاعر الفزع لدى المتلقي فيقول:

ومهــمهٍ متـصـــــلٍ بمهـمــه مَرْتٍ[51] بموّاج السراب مُتْرع
يذيب صمَّ الصخر حرٌّ لاذعٌ يقبضُ فيــه روحَ كلّ زعـــزع
لكلّ غارٍ فيـها ماء، وشــــوى فيه أُوَارُ الشمس كلّ ضفدع
لا نارَ تُذكى في الدجى لسفرهِ إلا بريقَ مقـــلة السمعمـــعِ[52] [53]

فهذه الصحراء شاسعة، قاحلة، حرارتها تذيب الصخر لشدتها، ولا ماء فيها، وتسكنها حيوانات ضارية كالذئاب، هذا ما يشكل خطرا رهيبا على الإنسان والحيوان على حد السواء. ويهدف الشاعر من وراء هذا الوصف إلى التعبير عن جلده وشجاعته بسفره عبر مجاهل الصحراء ودروبها المحفوفة بالمخاطر.

ونظرا لخطورة ركوب البحر واعتساف الفلوات وظفهما الشاعر لاستمالة عطف الممدوح:

كـم فـلاةٍ دونــه يدفعــها سُنْبُكُ العدو إلى خفّ الرسيم
لابن آوى وَسْطَها وَعْوَعَـةٌ تُوحِشُ الإنسَ، وللبـومِ نئيـم
وعظيـم الهـولِ لـولا آيةٌ لم يكُـــنْ راكـبُــهُ إلاّ أثيـم
لم تزل عيـني أو أذني به تُؤذِنُ القلب بخوفٍ لا ينيـــمْ
قد جمعتُ العزمَ ما بينهما بالسّرَى والنجم بالليل البهيــم[54]

لا شك أن الخوف من الصحراء والبحر يزداد بحلول الليل لقتامتهما المرعبة، لذلك يصور ابن حمديس للممدوح تحدّيه الدائب للصحراء والبحر ليلا في سبيل المثول بين يديه ومدحه، حتى يليّن قلبه وينال الحظوة عنده.

لا يقتصر شعور الخوف من المكان على الأماكن الطبيعية؛ بل يطال حتى القلاع والحصون والقصور وغيرها، والتي لها وقع شديد وهيبة في النفوس تنبثق من طابعها المعماري ووظيفتها الدفاعية «فالمكان يحمل في طياته قيما تنتج من التنظيم المعماري كما تنتج من التوظيف الاجتماعي»[55]، ويظهر هذا الإحساس في وصف ابن حمديس لحصن اسمه الأجم:

حصنٌ بَنَتهُ لِصَونِ الملك كاهنـةٌ وأُفْرِغَتْ فيـه من تدبيـرها الحِـكَمُ
على الحُصون مُطِلّ في مهــابته تلك البغاث وهذا الأجـدل القــرم
كأنَّهُ مــن بروجِ الجـــوّ منفـــردٌ فنظـــرةٌ منه فــوق الأرض تغتنَمُ
كالأبلقِ الفردِ لم يَركنْ إلى طمـــعٍ، لفتحه قبلــها، عُــربٌ ولا عجــمُ
أو ماردٍ في غـــرامٍ مــن تمـــرّدهِ بمثلِه العُصْمُ في الأطواد تعتصم
يشمّ زَهْرَ الدراري الزُّهــرِ من كَثَبٍ بيــن البــروج بعرنيــنٍ له شمــم
وهو الأجمَّ، ولكـــن لو يُناطِــحُــهُ طودٌ، لنكّبَ عنـــه، وهــو منثلم
كانت مغانية في صَدْرِ الزمان لكمْ وللأسود الضواري ترجعُ الأجـم[56]

إن هذا الحصن يحوز سمات تجعله ذا هيبة ورهبة، كالعلو والضخامة والصلابة وبراعة التشييد، علاوة على تاريخه الحافل بالصمود والانتصار. لكن هذه الهيبة وهذه السمعة لم تصمدا أمام جيش الممدوح، فما إن تيقّن الشاعر من اكتمال الصورة التي ارتآها لهذا الحصن حتى فاجأنا في البيت الأخير بحدث فَتْحِهِ من قِبل الممدوح، كل هذا من أجل إبراز الممدوح في هيأة القائد الذي لا يُقهر.

6-2 - الخوف من بعض الظواهر الطبيعية:

الخوف من القوة والخضوع لها فطرة في الإنسان، فهو يخاف من المظاهر الطبيعية الحادة ويخشى سطوتها عليه، وقد ينقلب هذا الخوف أحيانا إلى طاعة وأحيانا أخرى إلى خضوع وتقديس، وقد يأخذ شكل شعائر وطقوس يمارسها الإنسان بقصد التقرب منها ونيل رضاها[57]، من الظواهر المخيفة: المطر والريح والرعد والبرق وغيرها من الظواهر الأخرى.

إن الأمطار والرياح عند ابن حمديس غالبا ما تكون رمزا للخير والعطاء والخصب والنماء، لذلك لم يلتفت إلى ما هو مدمر منها، غير أنه أبدى خوفه –في أكثر من موضع– من البروق والرعود على شاكلة قوله:

وكأن البرق فيها حــاذفٌ بضــرام كلـّما شــبّ خمـــد
تارةً يخفو[58] ويخـفى تارةً كحســامٍ كلّما سُـــلّ غُمِـــدْ
يَذْعَرُ الأبْصارُ محمرّا كما قلب الحملاق في الليل الأسد[59]

فظهور البرق الخاطف وضوؤه الممتد عبر أرجاء السماء ولونه الأحمر مظاهر تحبس الأنفاس وتقذف الرعب في النفوس.

ويقول أيضا:

ومُـديمــةٍ لَمْــعَ البــروقِ كـأنَّما هَزّتْ من البِيضِ الصفاحِ متونا
وسرتْ بها الرِّيحُ الشــمالُ فكـم يدٍ كـانتْ لها عنـد الرّياض يميـنا
صرختْ بصوتِ الرّعد صرخة حامل ملأت بهـا الليـلَ البهيــم أنينا[60]

يتحدث عن ليلة حالكة لم تتوقف فيها البروق عن اللمعان، فبدت السماء وكأنها تلوّح بالسيوف، وبينما هي كذلك حتى اهتزت السماء بصوت الرعد المفزع لتهتز معها قريحة الشاعر وتجود بصورة فريدة شبّه فيها صوت الرعد بصرخة امرأة حامل عمّت الفضاء واجتاحت هدوء الليل الحالك.

ويعلو صوت السماء بالرعد تعبيرا عن الحزن، وعن رفضٍ للواقع الأليم في رثائه للأمير يحي بن تميم بن المعز:

شُقّتْ جيوبُ المعالي بالأسى وبكَتْ في الخافقين عليهِ الأنجمُ الزهرُ
إذ السماءُ بصوتِ الرعدِ صــرختها يكادُ منها فؤادُ الأرْضِ يَنْفَطِــر
والجــوّ مُتّــقدُ الأحشـاءِ مُكْـتَئِبٌ كأنَّما البرقُ فيها للأسى سُعُــر[61]

وقد لعب التشخيص هنا دورا محوريا في تجسيد الموقف الجنائزي المهيب بشتى أبعاده، وفي التعبير عن حزن الشاعر العميق الذي انسحب على كل شيء، فالمعالي شُقَّت جيوبها جزعا، والأنجم الزهر تبكي فَقْدَ الأمير يحي، والجو مكتئب جرّاء هذا المصاب الجلل.

3- مظاهر الخوف:

إن تعرض المرء لموقف مخيف تصحبه علامات وأمارات مختلفة تظهر في الجسد والنفس، تعبّر عن خروج الإنسان من حالة الإحساس بالأمن والطمأنينة إلى حالة من الاضطراب والقلق واللااستقرار، من هذه العلامات والأمارات: الحيرة والقلق الناجمين عن الفشل في تحقيق الانسجام بين دوافع النفس والواقع المعاش[62].

وفي هذا السياق يلمّح ابن حمديس إلى حالة الحيرة والقلق التي لفَّت أهلَ سفاقس قبل تولي علي بن يحي ولاية سفاقس:

وعارضٍ مدّ عرضَ الجو وانسبلتْ في وجنة الأرض منه أدمعُ السَّبلِ
أحيا الإلهُ بها التربَ المـواتَ كما أحيا سفاقسَ يحيى بالهمـام علي
كفؤ كفى الله في الدهرِ الغشيم به خطباً يخاطبُ منه ألسنَ العُضَلِ
أقرّ فيـها أناســاً في مــواطنهم لــمّا تنــادوا لتــوديعٍ ومـرتحــلِ
وأثبتَ الله أمْـــناً في قلـوبهــم بعد التقلّب في الأحشاء من وجل[63]

ولنا أن نتصور أثر سوء الأحوال واضطراب الأوضاع على أنفس هؤلاء القوم قبل مجيء منقذهم، فهم كانوا يتخبطون في دوّامة من القلق والحيرة والضياع، ويتألمون من جراء ترقب الأخطار من جهة، ومن جراء انتظار ساعة الفرج من جهة أخرى.

ويفصح الشاعر عن الخوف والتوتر الحاد الذي اعتراه أثناء رحلته نحو الممدوح:

حللنا بمغناك الذي يُنْبِتُ الغنى   ويُجْرِي حياةَ اليُسْرِ في ميّتِ العسر

وكم عَزْمةٍ خضنا بها هَوْلَ لُجّةٍ   كصارمك الماضي، ونائللك الغمر

وجدنا المُنى والأمن بعد شدائد   تقلّبُ أفلاذَ القلوب من الذعر (64)

فعلى الرغم مما مر به من مصاعب ومتاعب إلا أن نفسه ركنت إلى الهدوء والسكينة بعد أن حلّ بربوع الأمير يحي بن تميم بن المعز، وبعد أن نال مبتغاه.

ويتضرع الشاعر إلى الله عز وجل ناقلا إحساس الخوف الطاغي الذي يسيطر على كيان العبد يوم الحساب، وذلك من نافذتي العينين والنطق:

وارْفقْ بعيدٍ، لحظُهُ جَزِعٌ   يَوْمَ الحساب، ونُطْقُهُ همس(65)

لقد اختار أقدر الأعضاء على نقل ما يجول في خاطر الإنسان وضميره: "العينين" و"اللسان" «فالعين باب القلب، فما كان في القلب ظهر في العين»(66)، والخوف يظهر في العين بشخوص البصر واتساع الحدقتين، أما اللسان فقد يوهنه الفزع فلا ينطق إلا همسا، مثلما نراه في البيت السابق.

ونذكر من لوازم الخوف أيضا: "الأرق" الذي يحرم الشخص الخائف لذة النوم ويسلب أجفانه نشوة الكرى، فقد يرتاع الإنسان عند سماع صوت الرعد مثلا فيهجره النوم:

أرّق الأجفان رعدٌ صوتهُ   كهديرِ القَرْمِ في الشّوْلِ حَفَد(67) (68)

وقد يجلب السهاد فَقْدُ عزيز على نحو ما عاناه ابن حمديس عندما توفي ابن أخته:

سَهِّرٌ كرى مُقَلٍ تخافُ من الرّدَى   للخوف هجرُ الطير ماءَ ثماد(69)

فموت عزيز أو قريب حدث مروع يقع كالطير الجارح على المرء فيزعزع نفسه ويوردها الهموم والأسقام والأرق والسهاد، ولتقريب المعنى من ذهن المتلقي شبّه الشاعر العيون التي تسهر خشية الردى بالطير الذي يشرد عن حوض الماء خوفا من الخطر.

ويصرّ ابن حمديس في أكثر من مناسبة على أن الشيب الذي غزا شَعْرَه في مرحلة شبابه من آثار تجشم الصعاب وركوب الأهوال والأحداث المروعة التي عاشها، فهو يقول:

لشيَّبني في عنفوان شبيبتي   لقائي من الأيَّام دهياءَ فادحَهْ(70)

ويقول أيضا:

أنْبَتَ الدهر في المفارقِ شيباً   بهموم في مُضْمَرِ القلب يُزْرع(71)

ويعد الهرب وسيلة يدرأ بها المرء عن نفسه الشر والهلاك فيلوذ بالفرار حين يحس بخطر وشيك، مثلما فعل الروم عندما هزمهم علي بن يحي بأسطوله البحري:

أراكَ الله في الأعلاج رأياً   لهم منه المذلة والصغار

رأوا حربيةً ترمي بنفطٍ   لإخمادِ النفوس له استعار

فردّ الله بأسهمُ عليهمْ   فربحهمُ بصفقتهم خسار

وخـافوا من مـنـاياهُمْ وَفَــرّوا فدافَعَ عن نفوسهم الفِـــــرار
وقد جعلوا لهم شُرعَ الشوان[72] مع الأرواحِ أجنحةً وطاروا[73]

ومثلما فعل الفنش عند انهزامه أمام المعتمد بن عباد في معركة الزلاقة:

ومُعْترِكٍ تلَقّى الفنشُ فيه غريماً مهلكاً نفْسَ الغريمِ
تَسَتّرَ بالظلامِ وفرّ خوفاً بروعٍ شقّ سامعتي ظليمِ[74]

يبدو أن الهرب عند ابن حمديس يدل على الجبن؛ إذ يقترن في شعره بالحديث عن انهزام الأعداء في معاركهم أمام ممدوحه وفرارهم منه أملا في النجاة من قبضته.

ونلفي من مظاهر الخوف البكاء الذي نلمحه في قوله واصفا السبايا من بنات الروم:

كم بأرضِ الشرك من معمورةٍ أصبحت في غَزْوِهِ وهي يَبَاب
في أساطيلَ ترى أحشــاءها لبنات الـرومِ فيــهنّ انتحــاب[75]

ولا تقتصر مظاهر الخوف التي خص بها الأعداء على الهرب والبكاء وإنما نجد كذلك "اصفرار الوجه" في قوله يمدح الحسن بن علي بن يحي ويذكر انهزام عدو صقلية عام الديماس:

أبى الله إلا أن يكون لكَ النصرُ وأن يهدم الإيمان ما شاده الكفرُ
بنو الأصفرِ اصفرّت حذاراً وجوههم فأيديهمُ من كل ما طلبوا صفرُ[76]

وهنا تثير انتباهنا تلك العلاقة الطريفة التي عقدها الشاعر بين اللون الأصفر باعتباره مميزا للجنس أو العرق وبين اللون الأصفر بعدّه من علامات الخوف، وكأنه يريد إظهار تأصّل الخوف والجبن في أعماق نفوس الروم.

4- آليات مقاومة الخوف عند ابن حمديس:

يعمل الشخص الخائف جاهدا على مقاومة خوفه والتغلب عليه متوسلا بطرق وإجراءات تتناسب مع دوافع الخوف والقدرة على المواجهة والأساليب المتوفرة[77]، ومن هذه الوسائل: العزلة التي يلجأ إليها لمقاومة خوفه من الناس على وجه الخصوص، وهو يصرح بذلك في قوله:

ولما رأيْت الناس يُرْهَب شرهم تجنّبتهم، واخترت وحدةَ راهب[78]

لمّا خَبِر النّاس اعتزلهم مخافة السّقوط في شباكهم، والانزلاق في غيّهم، والوقوع في أحابيل أقران السّوء، وحتّى يحفظ مبادئه وأخلاقه من التّميّع والانحلال، فكما يكون اعتزال النّاس «التماسا لعمق المعاناة وأناة التّمثل وجلوة التأمّل ونفاذ الرّؤية، يكون أيضا فرارا من بشاعة الواقع عن يأس منه أو عن رفض له»[79]، فالعزلة – بناء على قول عائشة عبد الرحمن– مطلب فنيّ وأيضا دلالة على رفض الواقع والاحتجاج عليه، ففساد المجتمع من الدّوافع الرّئيسة لاعتزاله.

ويبدو أن غربته وبعده عن وطنه وأهله قد ساهم بشكل كبير في استفحال خوفه من الناس وما انجر عنه من اعتزالهم وتجنبهم، هذا ما يُلمح في قوله:

وقد بُدِّلتُ بعد سَرَاةِ قــومي ذئاباً في الصحابة لا صحابا
وألفيتُ الجليس على خلافي فلسْــتُ مجــالِــساً إلاّ كتــابَا[80]

فالشاعر – حسب ما يُستشف من هذه الأبيات – لمّا فَقَدَ في الحاضر ما يعوّضه عن قومه الذين كان يأنس بهم في الماضي، شعر بالخوف والوحشة أمام واقع مؤلم يعيشه في كنف مجتمع غريب عنه، فلم يجد بدّا من

اعتزال الناس واستعاض عنهم بالكتاب؛ إذ إن متعة العلم تغنيه عن المجتمع برمّته، وتعينه على الانتصار على قلقه واضطرابه، وتبدّد همومه وأحزانه.

ولكن هذا لا يعني أنّ ابن حمديس لا يختلط بالنّاس لأنّ ظروف الحياة والعيش تفرض عليه الاحتكاك بهم خاصّة وأنّه ممّن يتكسّبون بشعرهم، إلاّ أنّ هذا الاحتكاك لا يتعدّى أن يكون ظاهريّا، مثلما نلمحه في قوله:

فسواءٌ بين إخوان الصفا وذوي اللهو، مغيبي والحضور[81]

فهو بين النّاس حاضر غائب. و قد تبنّت عائشة عبد الرحمن هذه الفكرة كقاعدة عامّة، هذا ما نراه في قولها: «والأدباء الذين تلفّهم دوّامة من شواغل الدّنيا و هموم العيش، أو تفرض عليهم ظروفهم الماديّة و الاجتماعيّة الخوض في زحام الدّنيا، يلقون إليها ظاهر سمعهم وبصرهم، وعالمهم النّفسيّ يهيم بعيدا لاجتلاء الرؤى المحجبّة وراء أبعاد الواقع و آفاق المنظور، فهم في الزّحام حاضرون غائبون»[82].

لقد طلب ابن حمديس الرّاحة النّفسيّة – كذلك– في اللّهو وشرب الخمر لأنّهما يساعدانه في الانتصار على خوفه ونسيان مآسيه والتغلّب على متاعب الدّنيا، والتي أذوت عريكته وزعزعت كيانه، فعبّ من كؤوس المدام المترعة حتى ارتوى، وأمثلة ذلك كثيرة منها:

هاتها صفراء ما اخترتُ لها أُفُقَ الشمس على أُفُقِ يدي
خارجٌ في راحتي مقتنصٌ كل همّ كامنٍ في خلدي[83]

فهي تهزم الهموم وتجلب السّرور إلى الإنسان:

حمراءَ يُسلي شربها، وبشربها تُنْسَى الهموم وتُذْكَرُ الأفراح[84]

إنّ عملها يكمن في تخدير العقل، وحجب الواقع عن المرء، فإذا طرقت الهموم ساحته وأُوصدت كلّ الأبواب أمامه استنجد بها لأنّها تقضي على الأسى وتعوّضه بالفرح، كما أنّها تحقّق له مالم يحقّقه على أرض الواقع:

وصفراء كالشمس تبدو لنا من الكأس في هالة مستديره
يلاعبها الماء في مزجها فيضحكها عن نُجُومٍ منيرهْ
إذا جار هَمُّ الفتى واعتدى رأيتَ بها نفسه مستجيره
فتروي صداه، وتُدني مناه وتُرْدِي أساه، وتُحيِي سرورهْ [85]

فقد وجد في اللهو ومعاقرة الخمر وتعاطي الملذات متنفسا للضيق الذي يجثم على صدره من جراء الواقع المخيف.

لكنّ ابن حمديس لم يستمر على درب اللّهو والخمر، فمع استمرار غربته، وتقدّمه في السّنّ، وتكتّل همومه، وتفاقم أحزانه، صار اللّهو والخمر لا يجديان نفعا؛ إذ أظلمت الدّنيا في عينيه فزحف السّواد على كلّ شيء، حتىّ رائحة المدام التي كانت تأسر روحه ولبّه باتت لا تورثه سوى الهمّ، كما استحالت النّغمات إلى عويل، وبرزت هذه النّزعة في المراحل المتأخرة من عمره:

يا ربّ مجلس لذّةٍ شاهدتها كرهاً، وجُنحُ الليل مدّ جناها
جَمَعَ الشبابُ به بنيهِ، وبينهم شيخٌ غدا شيبٌ عليه وراحا
وكأنه في كلّ داجي شعرةٍ في الرأسِ منهُ مُوقِدٌ مصباحا
أمسَيتُ مَفطوماً عن الكأسِ التي يتراضعُ الندمَاءُ منها راحا
إلاّ شميماً كان همّاً سُكرهُ وغناؤه في مسمعي نياحا[86]

ويَرُدُّ سعد إسماعيل شلبي سبب هذا الموقف إلى نظرة الشّاعر التّشاؤميّة، إذ اعتبره مظهرا «من مظاهر المزاج السّوداويّ الذي حال بينه وبين زهرة الحياة، ومتاع الدّنيا»(87).

ولكنّ مساعي ابن حمديس لقهر خوفه لم تقتصر على الهروب والاستسلام، بل كان للتّفاؤل والمواجهة مكان عنده، لكنّهما لم يصمدا أمام نزعته التّشاؤميّة والاستسلاميّة، وقد كان سلوكه في قهر الخوف إيجابيّا في مراحله الأولى، يقول:

أحَلْتُ عَــزْمِي على هَمِّي فقَطّعـهَُ   كأنّ عزميَ من صَمصَامَتِي الذّربِ
ما قرّ بي السيـر في سهل ولاجبـل   إلاّ كما قرّ جاري الماء في صبب
ولم أضِقْ في السّرَى ذَرْعاً بمعضلةٍ   قد زاحمتني حتى ضاق مضطربي(88)

فبعزمه وحزمه، وتجشّمه الصّعاب، يبدّد همومه وأحزانه، ويدحر خوفه وقلقه.

ويدخل في هذا المجال تحفيز قومه على الجهاد حين كان قويّ العزيمة، كثير الطّموح، وحين كان أمله في الانتصار كبيرا:

بني الثغرِ لستم في الوغى من بني أمي   إذ لم أصلُ بالعربِ منكم على العُجمِ
دعــوا النــومَ إني خائـفٌ أن تدوسَكـمْ   دَواهٍ، وأنتـم في الأمـاني مـع الْحُـلمِ
وكـــأسٍ بأمِّ المـــوتِ يَسعى مُـديرُها   إلى أهل كـأسٍ حثّــها بابنة الكــرم
فـــرُدوا وجــوهَ الخيـلِ نحو كـريهـــةٍ   مُصَــرِّحـةٍ في الرُّوم بالثُّكْلِ واليُتْمِ(89)

أمّا بعد تلاشي ذلك الأمل شعر بالخيبة والاستسلام، وهو شعور خيّم عليه على وجه الخصوص في المرحلة المغربيّة، والذي غذّاه طول اغترابه، وشيخوخته... إلى غير ذلك من العوامل الأخرى.

وبعد هذه الدراسة نخلص إلى النتائج التالية:

واجه ابن حمديس الخوف بأشكاله المختلفة، وكان أبرزها الخوف من الله والخوف من الموت اللذين بلغا أوجهما في مرحلة شيخوخته، وهما يرتبطان عنده –عموما– بمثيرات مصيرية كالمرض، أو موت عزيز أو قريب، أو الشيخوخة.

اعتبر ابن حمديس الزمن قوة جبارة مسلطة على البشر، تسير على خلاف إرادتهم، لذلك حذّر منه مرارا، وخوّف الناس منه، على الرغم من تيقنه بعدم جدوى الاحتراس منه.

إن انتشار الرذائل والآفات الاجتماعية في عصره وتأذّيه بها ومعاناته منها أدى به إلى الخوف من الناس، ومن ثمة التحذير من الوقوع في أشراكهم.

إن حياته غير المستقرة وسفره الدائم ألقيا به عنوة في مجاهل البحر والصحراء، وهما مكانان اقترنا في مواضع عدة من شعره بالخوف والموت والهلاك لِما يضمرانه في أغوارهما من أخطار ومهالك، لذلك نجده يوظف هذا الخوف –أحيانا– في قصائده المدحية قصد استمالة عطف الممدوح، واستدرار نواله.

يغلب على الظاهرتين الطبيعيتين: "الأمطار" و"الرياح" إتيانهما –عند ابن حمديس– رمزا للخير والعطاء والخصب والنماء، لذلك لم يلتفت إلى ما هو مدمر ومخيف منها؛ إلا أنه أبدى خوفه من الرعود التي قد يَستخدم صوتها للتعبير عن الحزن ورفض الواقع الأليم.

يأخذ الخوف عنده –أحيانا– طابع الشمولية؛ إذ ينطلق من تجربته الذاتية ليعبر بعد ذلك عن غريزة الخوف التي تسكن أعماق البشر كلهم.

عند تقصي مظاهر الخوف في الديوان تبين أنها تتراوح بين شخوص البصر، واتساع الحدقتين، والتكلم بصوت خافت، والأرق، والشيب المبكر، والهرب، والبكاء، واصفرار الوجه. وما هذا التعدد والتنوع إلا دلالة على اهتمامه بالجانب النفسي والشكلي سواء بسواء، بغية إيصال موقف الخوف إلى المتلقي بكل أبعاده، فتحدث –تبعا لذلك– الاستجابة على إيقاع تجربة الشاعر.

أسفرت النصوص الشعرية عن آليات مختلفة ومتنوعة توسل بها الشاعر لمقاومة خوفه والتكيف له، من أهمها: العزلة، واللهو وشرب الخمر، والمواجهة والتحدي، وهي بهذا تتوزع بين السلب (العزلة واللهو وشرب الخمر) والإيجاب (المواجهة والتحدي) وقد ظهر المنحى الإيجابي على نحو جلي في المراحل الأولى من حياته، أما المنحى السلبي فقد خيم على شعره في المرحلة المغربية، وذلك امتدادا لنزعته التشاؤمية ومزاجه السوداوي الذي غذاه طول اغترابه، والأحداث المروعة التي شهدها، فضلا عن شيخوخته.

إن تعدد أنماط الخوف ودوافعه ومظاهره وآليات مقاومته في شعر ابن حمديس لدليل على ملازمة هذه الظاهرة للشاعر، ودورها القوي في توجيه سلوكاته سلبا وإيجابا، وفي بلورة موقفه من الحياة والوجود.

الهوامش:

1- هو أبو محمد عبد الجبار أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي، ولد في سرقوسة بصقلية سنة 446هـ ونشأ فيها، وفيها قضى شبابه. غادر صقلية سنة 471 متجها إلى الأندلس أين اتصل بالمعتمد بن عباد ومدحه، وعندما سجن يوسف بن تاشفين المعتمد بن عباد في أغمات بإفريقية، بقي ابن حمديس وفيا له وتبعه إلى منفاه سنة 484هـ، وكان يتردد عليه في سجنه إلى أن وافته المنية، وقد أقام بإفريقية بعد مغادرته للأندلس ما يزيد عن نصف عمره، وفي هذا الدور من حياته عاش متنقلا بين أغمات وسلا والمهدية وبجاية وبونة وتاجنة وسفاقس وميوركة وسبتة، يتكسب بشعره، فمدح بني علناس ورجال دولتهم، وبني زيري وبني خرسان، حتى توفي في رمضان من سنة 527هـ ببجاية.

2- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة خوف، مج9، دارصادر، بيروت– لبنان، د.ط، د.ت، ص 99–101.

3- الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة– مصر، د.ط، د.ت، ص 90.

4- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق– سوريا، ط4، 2009، ص 303.

5- الغزالي، إحياء علوم الدين، بهامشه تخريج زين الدين أبي الفضل العراقي، دار ابن حزم، ط1، 2005، ص 1503.

6- أسعد رزق: موسوعة علم النفس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت– لبنان، ط3، 1987، ص 119.

7- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، ج9، دار المعارف، القاهرة– مصر، د.ط، د.ت، ص 407.

8- ابن حمديس، الديوان، صححه وقدم له: إحسان عباس، دار صادر، بيروت– لبنان، د.ط، د.ت، ص 281.

9- المصدر نفسه، ص 286.

10- نفسه، ص 560.

11- نفسه، ص 283.

12- نفسه، ص 265– 266.

13- ينظر: حسني عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة– مصر، ط3، 2003، ص 172.

14- زكريا إبراهيم، مشكلة الحياة، مكتبة مصر، د.ط، 1971، ص 197.

15- ابن حمديس، الديوان، ص 67.

16- نفسه، ص 364–365.

17- نفسه ، ص 365.

18- نفسه، ص 283.

19- زكريا ابراهيم، مشكلة الانسان، ص 75.

20- ينظر: محمد النويهي، الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، ج1، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت، ص 428.

21- ابن حمديس، الديوان، ص 187.

22- نفسه ، ص 41.

23- ينظر: نفسه، ص 295.

24- ينظر: نفسه، ص 522.

25- ينظر: نفسه، ص 364-365.

26- امرؤ القيس، الديوان، شرح: محمد الإسكندراني، نهاد رزوق، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 2002، ص 327.

27- سورة الجاثية/ 24.

28- ينظر: جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة- مصر، د.ط، د. ت. ص 118.

29- ابن حمديس، الديوان، ص17.

30- ينظر: إحسان عباس، العرب في صقلية دراسة في التاريخ والأدب، مكتبة الدراسات التاريخية، دار المعارف، مصر، د.ط، د.ت، ص 129 وما بعدها.

31- ابن حمديس، الديوان، ص 275.

32- الأري: العسل. الصل: حية من أخبث الحيات.

33- نفسه ، ص 285-286.

34- فوزي عيسى، دراسات في أدب المغرب والأندلس، دار المعرفة الجامعية، مصر، د.ط، 2000، ص 343.

35- ابن حمديس، الديوان، ص 365.

36- أحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس، ص 149.

37- ابن حمديس، الديوان، ص 431.

38- ينظر: إحسان عباس، فن الشعر، دار الثقافة، بيروت، د.ت، ص 33 – 34.

39- ابن حمديس، الديوان، ص 29.

40- الخضارم: جمع مفرده خضرم وهو البحر العظيم.

41- نفسه، ص 29.

42- نفسه، ص 289.

43- سيزا قاسم وآخرون، جماليات المكان، دار قرطبة، الدار البيضاء- المغرب، ط2، 1988، ص63.

44- ابن حمديس، الديوان، ص 533- 534.

45- نفسه، ص 534.

46- غوارب الماء: أعالي موجه. طام: عظيم.

47- نفسه، ص 434.

48- علي مطشر نعيمة، خالد عبد الكاظم عذاري، صور البحر في شعر ابن حمديس، مجلة آداب البصرة، ع42، 2007، ص 125.

49- ينظر: عمر محمد الطالب، القلق والاغتراب في الشعر الجاهلي، دار عكاظ، المغرب، د.ط، 1989، ص 25.

50- ابن حمديس، الديوان، ص 39.

51- المهمه: المفازة البعيدة. مكان مرْت: قفر لا نبات فيه.

52- السمعمع: وصف للذئب لخفته وسرعته.

53- نفسه، ص 301.

54- نفسه ، ص 451.

55- سيزا قاسم وآخرون، جماليات المكان، ص 63.

56- ابن حمديس، الديوان، ص 464.

57- ينظر: نوري حمودي القيسي، دراسات في الشعر الجاهلي، بغداد، د.ط، 1972، ص 30.

58- يخفو البرق: يلمع.

59- ابن حمديس، الديوان، ص 118.

60- نفسه، ص 490.

61- نفسه، ص 222.

62- مصطفى عبد السلام الهيتي، القلق، مكتبة النهضة، بغداد– العراق، ط2، 1985، ص 15.

63- ابن حمديس الديوان، ص 392.

64- نفسه، ص 217.

65- نفسه، ص 283.

66- ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج2، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 1983، ص 204.

67- القرم: فحل الإبل. الشول القطيع. حفد البعير: أسرع في السير.

68- ابن حمديس، الديوان، ص 118.

69- نفسه، ص 120.

70- نفسه، ص 81.

71- نفسه، ص 306.

72- الشواني: جمع مفرده شونة وتعني سفينة حربية قديمة.

73- نفسه، ص 239.

74- نفسه، ص 437.

75- نفسه، ص 65.

76- نفسه، ص 252–253.

77- ينظر: كالفن هول، علم النفس عند فرويد، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة، سيد أحمد عثمان، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ط، 1967، ص 106.

78- ابن حمديس، الديوان، ص 30.

79- عائشة عبد الرحمن، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، ط2، د.ت، ص223.

80- ابن حمديس، الديوان، ص 15.

81- نفسه ، ص 198.

82- عائشة عبد الرحمن، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، ص 223.

83- ابن حمديس، الديوان، ص139.

84- نفسه، ص 103.

85- نفسه ، ص 184.

86- نفسه، ص 80.

87- سعد إسماعيل شلبي، ابن حمديس الصّقليّ، ص 156.

88- ابن حمديس، الديوان، ص 17.

89- نفسه، ص 416.